

خطب الإمام الحسين عليه السلام في وقعة الطف
لأبي مخنف الأزدي (ت ١٥٧هـ)
دراسة في ضوء تحليل الخطاب

Imam Al-Hussein Sermons in Al-Taff Battle by
Abi Makhnif Al-Azdi (157 Hegira Died)
(Discourse Analysis Study)

أ.د. حربي نعيم محمد الشبلي
Prof. Dr. Harbi Na'aim Mohammad
م.م. غفران إقبال يوسف
Asst. Lecture. Ghafran Iqbal Youssif

خطب الإمام الحسين عليه السلام في وقعة الطف لأبي
مخنف الأزدي (ت ٧٥١هـ)

دراسة في ضوء تحليل الخطاب
Imam Al-Hussein Sermons in Al-Taff Battle
by Abi Makhnif Al-Azdi (157 Hegira Died)
(Discourse Analysis Study)

أ.د. حربي نعيم محمد الشُّبلي
جامعة كربلاء / كلية التربية للعلوم الإنسانية/
قسم اللغة العربية

Prof. Dr. Harbi Na`aim Mohammad
Dept of Arabic/ College of Education for
Humanist Sciences/ University of Karbala

م.م. غفران إقبال يوسف
مديرية تربية محافظة كربلاء المقدسة
Asst. Lecture. Ghafran Iqbal Youssif
Education Directorate of Holy Karbala Province

raniaalsaadi2006@gmail.com
Dhndhn1971@gmail.com

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٠ / ١ / ٢٠
تاريخ القبول: ٢٠٢٠ / ٨ / ٢٥

خضع البحث لبرنامج الاستتال العلمي
Turnitin - passed research

ملخص البحث:

الحمد لله الأول الذي لا أول لأوليته، والآخر الذي لا آخر لآخريته، والصلاة والسلام على نبينا الصادق الأمين محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

تحللت ثورة الإمام الحسين عليه السلام التي كانت منارا للتاريخ الإنساني والإسلامي مجموعة من الخطب للإمام الحسين عليه السلام في مسيرته إلى كربلاء. ويهدف البحث إلى تسليط الضوء على بعض الجوانب المتصلة بمفهوم تحليل الخطاب في خطب الإمام الحسين عليه السلام، إذ يبدأ البحث بالأصول العربية والغربية لتحليل الخطاب، ثم تدخل الدراسة إلى آليات خطاب الإمام عليه السلام وروافده الدينية والأدبية، ويُجتم البحث باستعراض الخطاب الإقناعي، الخطاب الحجاجي أو المنطقي والخطاب الحماسي بوصفها نماذج لتحليل خطاب الإمام الحسين عليه السلام.

الكلمات المفتاحية: خطب، وقعة الطف، أبي مخنف الأزدي، تحليل الخطاب، الخطاب الحجاجي

Abstract

Praise be to Allah. The first who is second to none , the last who has no last one but Him and peace and blessings be upon our sincere prophet Mohammed and his benevolent and immaculate progeny.

The revolution of Imam Hussein (peace be upon him) was a beacon of human and Islamic history and celebrated with a series of speeches of Imam Hussein (peace be upon him) in his procession to Karbala. This research aims to shed light on some aspects related to the concept of discourse analysis in the speeches of Imam Hussein (peace be upon him). Then it begins with the Arabic and Western origins to analyze the speech. Moreover , the study tackles the mechanisms of Imam's speech (Peace be upon him) and its religious and literary tributaries , the research ends with a review of persuasive speech as a model to analyze the discourse of Imam Hussein (peace be upon him).

Key words: Sermons, Al-Taff battle, Abi Makhnif Al-Azdi , discourse analysis , argumentative discourse

التمهيد:

في تحليل الخطاب

تحليل الخطاب هو مفهوم جامع ذو استعمالات عديدة، يشتمل على مجالات واسعة من الأنشطة: تداولية - اجتماعية - نفسية - أسلوبية وغيرها. انه في استفاضة دائمة: موضوعا، مجالا، علما، منهجا، يسعى الى تحليل وفك شفرة الخطاب من اجل فهمه، على اختلاف أنواعه: (أدبي / شعري / نثري)، سياسي، إسهاري، اجتماعي - نفسي، تعليمي، علمي... الخ. حتى لا نقف عند هذا الأخير (الخطاب) مكتوفي الأيدي وعاجزين لا نملك آليات التحليل، ولا قدرة لنا على القراءة والتأويل، بوصفه خطابا متماسكا، غاية في التعقيد والتشابك.

يقول سعيد علوش: «إن وقفة عابرة على نص صيني هيروغليفي، سانسكريتي لتجعلنا نقف كمحارين منزوعي الأسلحة، مدهوشين أمام كنوز، لا نملك مفاتيحها، وكذلك الأمر أمام نوتات موسيقية، وضعت بين يدي رسام، أو إشارة أبكم إلى أعمى»^(١) أمام مثل هذه المقولة، نتساءل: ماذا نريد بتحليل الخطاب؟

أ- الخطاب: على الرغم من غنى العربية بالمفردات التي تفوق في عددها مفردات بعض اللغات الأخرى، ترانا نعاني أحيانا من مشكلة تحديد معاني عدد من المفاهيم والمصطلحات العلمية، وتحديد الواقد منها، في إطار العلوم الإنسانية.

فاللغة أي لغة كانت، هي أساس التعامل الإنساني، وهي وسيلة للتعبير عن أوضاع وحالات وأفكار محددة، والمصطلح هو ألف باء العلم، كل علم، وأي علم كان^(٢)، ومن هنا تأتي أهمية تحديد مفهوم «خطاب» عملا بمقولة «فولتير Voltaire» الشهيرة: «قبل أن تتحدّث معي، حدد مصطلحاتك.»^(٣)

إن مصطلح «خطاب»، اسم مشتق من مادة (خ. ط. ب)، وقع اعتماده من طرف الفكر النقدي العربي الحديث ليحمل دلالة المصطلح الغربي «Discourse».

ب - التحليل: ويعني لغة - الفتح - جاء في لسان العرب «حل العقدة محلها حلا: فتحها ونقضها فانحلت»^(٤) أي فككها.

والتحليل مصطلح جامع يستدعي في ممارسته مصطلحات عديدة، بإجراءاته عملية إسقاطية على ما يسمى الخطاب، إذ تسعى هذه العملية إلى تفكيك الخطاب المحبوك المتناسك (شكلا ودلالة)، المكتوب والمسموع إلى بنيات جزئية فاعلة ومتفاعلة: داخلية وخارجية، من أجل معرفة مختلف المرجعيات الخطابية (الأسس المعرفية والخلفية والأطر النظرية للخطاب)، التي ساهمت في تشكيله، بمعرفة مضامينه ومحتوياته وغاياته ومعايره وفضائه وبنياته وجنسه... الخ، ليتحقق التحليل، الأمر الذي يجعل العملية غاية في التشابك والتعقيد، تتطلب من أجل التحكم فيها، معرفة موسوعية عميقة في التخصص تحوّلها معارف رافدة أخرى من جهة، والتحكم في ممارسة بعض المصطلحات التي يقودنا إليها التحليل - بوصفه مصطلحاً جامعاً - من جهة أخرى. والغاية من تحليل الخطاب هي الوقوف على دلالات النص الأكثر عمقا، وإعطاء النص القراءة الدلالية الأدق، غير أننا متأكدون مبدئياً من أن تلك القراءة لن تكون نهائية، لأنها قراءة تجرنا إلى قراءات أخرى تتحكم فيها ظروف القراءة، لتقتحم النص في عمقه لتكشف دلالاته^(٥).

المبحث الأول: آليات خطاب الإمام الحسين وتحليله

لا ينبغي أن يتوقف الخطاب عند الحدود اللسانية للجملة أو الفقرة أو النص، بل أن يتجاوز ذلك، من دون شك، إلى المضمون والمحتوى، ثم إلى الخطاب انطلاقاً من خصائصه الفنية المتمثلة في درجة الأدبية فيه؛ لذا فإن تحليلنا للخطاب يجب أن يراعي اجتماع الخصائص اللسانية والقضايا الفكرية والاعتبارات النفسية والبويطيقية والفنية. وهذا الاجتماع هو الخطوة الأساسية لفهم أي نص / خطاب. لكننا نعتقد أن تحليل الخطاب يجب أن يتجاوز كل هذا إلى ما هو أعمق باعتماد الاستقراء والاستنباط والتأويل مع الاستعانة بالأدوات السيميائية المسهلة لفتح سبل الإشارات والدلالات والتأويلات التي تربط النص بكافة الأجواء الخارجية، والتي تتعلق معظمها بنفسية صاحبه وبخلفياته الفكرية والمعرفية والإيديولوجية... وهذا يدفعنا إلى الانفتاح بقوة على حقول علم النفس والسيكولوجيا والسياسة وغير ذلك.

هذه هي معظم محطات تحليل الخطاب، التي من دونها لا يمكن سير أغوار خطاب ما وفهم ما وراء السطور والتقاط شذرات المعاني والأفكار المشتتة فيه؛ وهذا ينطبق على الملفوظ الشفوي والخطاب المكتوب، بل على كل وسائل التعبير والتواصل باللغة والصورة وغيرهما. على الرغم من أن العملية صعبة جداً وتستلزم شروطاً لعل أقلها هو سعة الاطلاع إضافة إلى المواهب الذاتية التي يمكن أن تصل إلى حد الفراسة، وأن يتم صقلها بالتمرين والمراس... .

فإذا أخذنا جملة يمكن أن نجد أن الحدود اللسانية لا تكفي لسبر أغوارها وتأويل دلالاتها ومعانيها، مما يستلزم الاستعانة بما ذكرناه من الآليات. نلمح من كلام الإمام الحسين عليه السلام في إحدى خطبه التي رد بها على من كتبوا له وطلبوا منه أن يكون إماماً لهم قائلاً: ((إني لم أتكم حتى أتتني كتبكم وقدت عليّ رسلكم، أن

أقدم علينا فإنه ليس لنا إمام، لعل الله يجمعنا بك على الهدى))^(٦).

يتجه في خطابه من طريق تقييد المخاطبين بحجته وهو يعلن طلبهم إمامته عليهم وهنا يومئ إلى رفض المسلمين أولياء الأمر حينذاك من خلال الصياغة اللغوية في الخطبة (ليس لنا إمام، لعل الله يجمعنا بك على الهدى) فهو دليل على فقدان الأمة إمامهم الحقيقي وعدم القناعة بأحقية تولي الحاضر، ويتبين لنا من خلال الخطبة الاستنجاج فنلاحظ الفعل (أتى) ومرادفه:

لم آتكم ← أتتني كتبكم
← وقدمت عليّ رسلكم
أن أقدم علينا

فالجمع بين الفعل (أقدم) مع الفعل (أتى) تأكيد للطلب ويشير إلى بعد المسافة بين المرسل والمرسل إليه، وقد زادت صياغة النفي والتمني ذلك الطلب وأكدته بعبارة (يجمعنا بك على الهدى) وهذا دليل على اجتماع الآراء حوله واتحاد القوم ونصرتهم له. وبعدها يتكلم الإمام الحسين عليه السلام بلسان أهل البيت جميعاً ويقر أن خلافة المسلمين هي من حقهم بقوله: ((أما بعد، أيها الناس فإنكم إن تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى الله، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدعين ما ليس لهم، والساترين فيكم بالجور والعدوان! وإن كرهتمونا وجهلتم حقنا، وكان رأيكم الآن غير ما أتتني به كتبكم وقدمت به عليّ رسلكم، انصرفت عنكم!))^(٧).

يتجه الإمام الحسين عليه السلام بخطابه إلى المتلقين بأداة التوكيد (إنكم) بالشرط (إن تتقوا الله وتعرفوا الحق ← لأهله يكن أرضى الله) ليقر بحقيقة دامغة لا تقبل الشك وهي حقوق أهل البيت وهو يقرن بينها وبين رضا الله، وبعدها يلجأ الإمام الحسين عليه السلام إلى عقد مقارنة بين ولاة الأمر حينئذ معتمداً على مبدأ المفاضلة والتمييز.

نحن أهل البيت ← أولى بولاية هذا الأمر.

من هؤلاء المدعين ← المدعين ما ليس لهم.

السائرين فيكم ← بالجور والعدوان.

فهو يعمل بطريقة التقابل (المدعين ← ما ليس لهم)

(السائرين فيكم ← بالجور والعدوان)

فقد أبان الخطاب قدرة الإمام على رسم صورة المقابل بأوصاف لا تليق بمن يتصف بها تولية الأمر فضلا عن تأكيده الدفاع عن حق آل البيت باستعماله التكرار في صيغ الخطاب الدالة على ذلك:

(نحن = أهل البيت) (أولى + بولاية + هذا الأمر)

فمن خلال هذا الأسلوب في الخطاب تبرز جدية مطلبه المعززة بلهجة قوية ذات وقع على أسمع المتلقين تصب في إبراز صوت المتكلم (الإمام عليه السلام) وإعلانه صراحة بالمطالبة بحقوق أهل البيت عليهم السلام.

ويُقسم خطاب الإمام لعدة أنواع مستمدة من عدة روافد منها الرافد الديني والرافد الأدبي.

أولا / الرافد الديني:

إن قراءة متأنية لمقطع من حياة الإمام الحسين عليه السلام منذ أن رفض بيعة يزيد والى أن تقبله الله تعالى شهيدا في كربلاء، هذه المرحلة على قصرها هي المرحلة الأهم في حياته عليه السلام لأنها مرحلة الثورة المقدسة التي مثلت انعطافة تاريخية في حياة الإسلام والمسلمين أفرزت قيما أخلاقية، وتضمنت جوانب تربوية واجتماعية، مجتمعا بأمس الحاجة إليها الآن لان الإسلام اليوم يتعرض إلى هجمة شرسة عمادها الفكر

الأموي. (وعندما يكون الفرد أهم وحدة تكوينية للمجتمع، فبناؤه وعدّه نفسيا وفكريا من المهام الكبيرة التي تلقى على عاتق الأمة وقيادتها لبناء مجتمع إسلامي رصين)^(٨). ويعد الموروث الديني رافدا ثقافيا يتراسل مع مكونات الثقافة الأخرى لمنشئ النص، ينهل منه المبدعون على مر العصور، الألفاظ، المعاني والصور التي تساعدهم في ارتقاء نتاجهم الأدبي، ويمنح الرافد الديني الخطاب مميزات النص الديني من دلالة الألفاظ وجمال الصورة ودقة الصياغة وقوة الحجة وعنصر التأثير.

١ - القرآن الكريم:

عند خروج الإمام الحسين عليه السلام من المدينة في بداية المسير نحو كربلاء ركز عليه السلام على أمرين: الأول هو الرفض القاطع لبيعة يزيد والثاني هو دعوة المسلمين إلى نصرته الحق ورفض الباطل، والحسين ينطلق من ((فكرة واضحة هي كونه صاحب حق، اغتصب حقه أمام المسلمين جميعا))^(٩) ولتحقيق ذلك وإقناع السامعين اتخذ خطاب الإمام الحسين عليه السلام أبعادا مختلفة وتأثر أسلوب الإمام عليه السلام في طريقة (كلامه وخطبه) بأسلوب القرآن الكريم، فالإقتباس القرآني يؤدي إلى إثارة المخاطبين وضمان إصغائهم من خلال الإشارة إلى الأخذ من القرآن فقول الخطيب ((قال تعالى، قال عز وجل أو وهو قول الله))، إنما هو بمنزلة جرس إنذار وانتباه لما سيأتي به الخطيب فيولد استعدادا ذهنيا تاما عند المتلقي ويمنح السياق الخطابي القوة والمجادلة أو البرهنة في توثيق ما يذهب إليه فيزيد الثقة والحماس عند المنشئ أو المتلقي.

الإمام الحسين عليه السلام وهو سليل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة ومهبط الوحي، وقد نزل القرآن في بيتهم لذلك نجد القرآن لا يغادر لسانه على طول الطريق منذ خروجه من المدينة مع بنيه وإخوته وبنو أخيه وجل أهل بيته، وهو يتلو هذه الآية ﴿ خَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾^(١٠)، فلما دخل مكة

تلا هذه الآية ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ^(١١).
وفي البيضة ^(١٢) خطب الحسين عليه السلام بأصحابه وأصحاب الحر وقال: ((... وان لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم فلعمري ماهي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم! والمغرور من اغتر بكم، فحظكم أخطأتم، ونصيبيكم ضيعتم ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ ^(١٣) وسيغني الله عنكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)) ^(١٤).

في هذه الخطبة هنالك اقتباس تام من القرآن الكريم وظف به الإمام النص القرآني وادخلها في خطبته ولا يخفى ما لهذا الأسلوب من تأثير في نفوس السامعين، لان الآيات التي يختارها الإمام ويدخلها في سياق خطابه يكون لها تأثير كبير في السامعين، وبين عليه السلام لهم حقيقة مفادها أن من ينكث وينقض عهده وبيعته فإنما ينكث على نفسه وهذا الأمر ليس بغريب عليهم فأعطاهم الحسين الأدلة الدامغة على ما فعلوه من قبل مع أبيه وأخيه وابن عمه عليه السلام.

وأيضاً نلاحظ أن هنالك اقتباساً غير تام من القرآن الكريم من قوله تعالى ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ ^(١٥). في هذه الخطبة اكتفى الإمام بالإشارة إلى المعنى في الآية، واقتبس عليه السلام لجزئية الغرور، والغرور ((كل ما يغر الإنسان من مال أو جاه وشهوة شيطان)) ^(١٦)، ليوظفها في النص الخطابي ليمنحه قيمة فنية لما تحمله الآية القرآنية.

وفي واحدة من خطبه في ساحة المعركة يقول: ((وان لم تقبلوا مني العذر، ولم تعطوا النصف من أنفسكم ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ^(١٧)، ﴿إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ ^(١٨))).

فتتجلى قدرة الإمام في الاختيار للجمع بين نصين متفرقين وهما يحملان معاني مشتركة أسهمت في تعزيز دلالة النص. فصور الإمام حال القوم والموقف القائم من خلال استدعاء الحقائق التاريخية التي وثقها القرآن الكريم وصورها.

إذ تتحدث الآيات المقتبسة عن نبي النبي نوح عليه السلام ومعارضة قومه الشديدة لدعوته، فنوح ((صمد مقابل أعدائه الأقوياء المعاندين وواجههم بقاطعية وحزم ومنتهى الشجاعة والشهامة مع أصحابه القليلين الذين كانوا معه وكان يستهزئ بقواهم وبربهم وعدم اهتمامه بخططهم وأفكارهم وأصنامهم، وبهذه الطريقة كان النبي نوح عليه السلام يوجه ضربة عنيفة إلى أفكارهم)) (١٩).

٢- الحديث النبوي:

الحديث النبوي نص ديني، يتضمن دقة التعبير، وجودة السبك، وروعة التصوير فلا يرتفع فوقه في مجال الأدب الرفيع إلا كتاب الله بلاغة، وفصاحة وتأثيراً إذ ((لم يسمع الناس بكلام قط اعم نفعاً، ولا اقصر لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهبا ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى ولا أبين في فحوى، من كلامه صلى الله عليه وآله كثيراً)) (٢٠).

والحديث النبوي كما هو معروف هو كلام الرسول صلى الله عليه وآله الذي لا ينطق عن الهوى إنما هو وحي يوحى، وهو المصدر الثاني من مصادر التشريع بعد القرآن الكريم، وهو أفصح من نطق بالضاد وقد وصل إلينا كم هائل من الأحاديث النبوية الشريفة من طريق الصحابة والتابعين، وأفاد منها الخطباء والشعراء والأدباء في خطبهم وأشعارهم ويُعد الالتزام بها واجبا شرعيا على المسلم، وقد أشار أحد الباحثين إلى هذه المسألة بقوله:

((لا يرد إلا في المواقف التي يتطلب فيها اظهار الحججة والبرهان، والقصدية في

ظلم حق أهل البيت وإنكاره واضحه عند الأمويين)) (٢١)

يلمس وجود الأثر النبوي في خطاب الإمام الحسين عليه السلام الذي انبرى فيه ليحرك المعاني الذهنية للألفاظ التي تحاكي فيها النص الخطابي في دقة المعاني وجزالة الألفاظ وهذا ما تجلّى في قوله عليه السلام بقوله: ((انه قد نزل بنا من الأمر ما قد ترون، وان الدنيا قد تغيّرت وتنكرت وأدبر معروفها واستمرت حذاء، ولم يبق منها إلا صُباة كصباة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الويبيل...))^(٢٢٢)، تمتد جذوره إلى الوصف النبوي في قوله عليه السلام ((أما بعد، فإن الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صُباة كصُباة الإناء))^(٢٢٣).

استحضر الامام الحسين عليه السلام رمزية جدّه رسول الله عليه السلام في خطاباته، وأخذ يذكر القوم بانتمائهم نسباً ودينياً لرسول الله عليه السلام مما يستدعي منهم أن يراعوا تلك الصلة وذلك الانتماء، لذلك خاطب جيش بني أمية بقوله: ((أما بعد: فانسبوني من أنا؟! ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، فانظروا هل يحلّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟! ألسنت ابن بنت نبيكم عليه السلام وابن وصيّه وابن عمّه، وأول المؤمنين بالله والمُصدّق لرسوله بما جاء به من عند ربّه؟))^(٢٢٤). وهذه النسبة الى رسول الله عليه السلام مع المواقف كلها، ومنها قول حبيب بن مظاهر الاسدي (أما والله لبئس القوم عند الله غداً قوم يقدمون عليه قد قتلوا ذرية نبيّه عليه السلام وعترته وأهل بيته))^(٢٢٥)، ومما لا شك فيه أن استحضر مثل هذه المرجعية يهدف إلى إضفاء قدر من القدسية على نهضة الامام الحسين عليه السلام من جهة، وبغية التأثير في جيش ابن سعد من جهة أخرى، لأن لرسول الله عليه السلام مكانة مقدسة في نفوس المسلمين وهو القائل في حديثه المتواتر ((الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة وفاطمة سيّدة نساءهم إلا ما كان لمريم بنت عمران))^(٢٢٦)، فما جزاء من يقتل هذا السيد إلا النار، لأن قتل أبناء الأنبياء هو قتلٌ للأنبياء وقد توعد الله على ذلك بالعذاب الأليم.

ثانياً / الرافد الأدبي

يخضع النص الخطابي شأنه في ذلك شأن النصوص الإبداعية في الفنون الأخرى لظاهرة التأثير والتأثر إذ يسعى المنشئ بشتى الطرق إلى الارتقاء في الخطاب نحو التميز، ويمكن أن نلاحظ في بنية الخطاب أن الإمام يستعمل أكثر التعبيرات تأثيراً في عقول المخاطبين وأسماهم، وهو يلجأ إلى أسلوب الإقناع حيناً، وقد يستعمل أسلوب الحوار والمناقشة أو التهديد والتخويف من العواقب حيناً آخر؛ لذا تنوعت الأساليب التي يعبر بها الإمام عن أغراضه، وتداخلت في تراكيب خطابه الجمل الاسمية مع الجمل الفعلية والخبر مع الإنشاء، ليرسم من خلالها الصورة التي يريد إيصالها إلى السامعين، ومن هنا يمكن القول: إن بنية الخطاب الحسيني في مراحلها المختلفة تتسع، لتشمل كل الأساليب المستعملة في لغة العرب من توكيد وقسم وتشبيه وشرط ومجاز وحقيقة واستعارة وكناية وتكرار وخبر وإنشاء وغيرها، وكما نعلم جيداً أن الإمام الحسين (عليه السلام) هو وارث الأنبياء وهو كذلك وارث لثقافة أدبية عظيمة تلقاها عن جده سيد المرسلين وعن أبيه سيد البلغاء والمتكلمين وهو بالتأكيد على قدر كبير من الإمام بما تحدثت به العرب من فنون الشعر والنثر، ولذلك نجد الإمام الحسين (عليه السلام) يضمن نصوصاً من الشعر أو حتى الأمثال في خطبه وذلك بحسب ما يقتضيه الحديث أو سياق الكلام.

١- الشعر:

الشعر، ديوان العرب والمنظوم من كلامها والمقيد لأيامها^(٢٧) فيه أخبارهم وعلومهم به يأخذون واليه يصيرون^(٢٨). فهو اللسان الناطق في حلهم وترحالهم، في سلمهم وحرهم، فهو علم قوم ليس لهم علم أصح منه^(٢٩) حتى روي عن عبد الله بن عباس قوله: ((إذا قرأت شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه، فاطلبوه في أشعار العرب فإن الشعر ديوان العرب))^(٣٠).

كان نصيب الشعر في خطب الإمام الحسين عليه السلام محدودا وقف عند حدّ التضمين لبيت أو أكثر في فكرة تلتقي مع الخطاب بسبب من الحكمة، وهو ليس بكثير، من ذلك ما نجده في قول الإمام الحسين عليه السلام (٣١):

(بحر الرجز)

يَا دَهْرُ أَفْ لَكَ مِنْ خَلِيلٍ كَمْ لَكَ بِالْإِشْرَاقِ وَالْأَصِيلِ
مَنْ صَاحِبٍ أَوْ طَالِبٍ قَتِيلٍ وَالْدَهْرُ لَا يَقْنَعُ بِالْبَدِيلِ
وَإِنَّمَا الْأَمْرُ إِلَى الْجَلِيلِ وَكُلُّ حَيٍّ سَالِكٌ سَيْبِي

هذه الأبيات نلاحظ فيها طباقا بين (الإشراق) و(الأصيل) وهو تناسب بين طرفين في الاسمية أيضا، فهو يحشد أفكاره باستلهاام معاني القرآن والحديث ويطرز شعره. فألفاظه تتراوح بين الليونة والرقّة ويجدو بها إلى الاستعمال الفني لما تتضمن من جزالة وحيوية وصدق فملاحمه واضحة إلا انه واسع الدلالة يختفي في مفرداته وصياغاته معالم البيان العربي من مجاز وتشبيه واستعارة وكناية.

إن هذا النعي التفصيلي المبكر لنفسه يعجز عن وصفه البيان، ولا مثيل له في التاريخ؛ لأنه تنظير وتطبيق في الوقت نفسه، ومن هنا تبدو حرارة مصيبة الامام الحسين عليه السلام ووقع شدتها على النفوس على مر التاريخ.

ومما تمثل به الإمام الحسين عليه السلام في شعر الحماسة ما ذكره أبو مخنف في هذا الحوار حين ساير الحر الإمام عليه السلام فقال له الحر: ((يا حسين إني أذكرك الله في نفسك، فاني أشهد لئن قاتلت لتقتلن، ولئن قوتلت لتهلكن فيما أرى)) (٣٢).

فقال له الحسين عليه السلام: ((أفالموت تخوفني! وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني! ما أدري ما أقول لك: ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه ولقيه وهو يُريد نصرة رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال له: اين تذهب؟ فإنك مقتول؟ فقال (٣٣).

(بحر الطويل)

سَأْمُضِي وَمَا بِالْمَوْتِ عَارٌ عَلَى الْفَتَى إِذَا مَا نَوَى حَقًّا وَجَاهَدَ مُسْلِمًا
وَوَاسَى الرَّجَالَ الصَّالِحِينَ بِنَفْسِهِ وَفَارَقَ مَثْبُورًا يُعْشَشُ وَيُرْعَمَا
فَإِنْ عِشْتُ لَمْ أَنْدَمْ وَإِنْ مُتُّ لَمْ أَلَمْ كَفَى بِكَ ذُلًّا أَنْ تَعِيشَ وَتُرْعَمَا

فلما سمع ذلك الحر منه تنحى. وكان يسير بأصحابه في ناحية، والحسين عليه السلام في ناحية أخرى.

لقد استطاع الإمام الحسين عليه السلام أن يوظف هذه الأبيات التي قالها الشاعر في مقام معين لإيضاح علو الهمة لتحقيق ما يريده حتى لو كان الموت هو النتيجة، هذا الموت هو الذي تنتهي به المعارك ولا تنتهي به الحياة لأنه موت كريم، وأي موت أفضل من أن تواسي به الصالحين. يقول أحد الباحثين:

((لقد أكد أن انتصار الحرب وخسارها يتقاسمان المعركة، ولكن قد يأتي الانتصار مصحوبا بالحياة الذليلة، وقد يرد خسران المعركة وشعارها الحياة الخالدة، أما الموت فحقيقة شاملة خارج الإرادة الإنسانية، ولكن الموت الكريم لا يخرج عن تلك الإرادة))^(٣٤).

٢- الأمثال:

سجلت الأمثال حضورا متميزا في الأدب العربي القديم فتناقلتها الأجيال جيلا بعد جيل، اذ وردت في جميع أحداثهم وشؤون حياتهم، ((فالأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام يجتمع فيها إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه))^(٣٥). والمثل ((جملة ذات مفهوم عميق، تدل على نتيجة اثر تجربة واقعية، والمثل موجود عند كل شعوب الأرض، وهو المرأة الصافية لحياتها، عاداتها وتقاليدها))^(٣٦).

إن استحضار الأمثال في الخطب يؤثر ((في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، وذلك لان الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحسّ مطابقاً للعقل، وذلك في نهاية الإيضاح))^(٣٧)، وقد وظفت الأمثال في خطب الإمام بطريقتين هما:

أ- التضمين المباشر.

ب- التضمين غير المباشر.

والأمثال ضمنّت لتؤدي وظيفة الإيجاز في الألفاظ بما يقتضيه المقام (ساحة القتال) وتأكيد المعنى في نفس المتلقي وتعميقه في الخطاب، لكون الأمثال ((صورة حية ماثلة لمشهد واقعي أو متخيل، مرسومة بكلمات معبرة موجزة يؤتى بها غالباً لتقريب ما يُضرب له من طريق الاستعارة أو الكناية أو التشبيه))^(٣٨).

أ- التضمين المباشر:

من الأمثال المستحضرة بشكل مباشر في خطاب الإمام الحسين عليه السلام في أصحابه قوله: (اتخذ الليل جملاً)^(٣٩) وهذا المثل يضرب للرجل إذا ركب الليل في حاجته ولم ينم حتى ينالها ويقضيها^(٤٠) جاء في سياق الخطبة قوله عليه السلام: ((أما بعد، فإنّي لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً، ألا واني أظنّ يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، ألا وأني قد (أذنتُ) لكم فانطلقوا جميعاً في حل، ليس عليكم مني ذمام، هذا ليل قد غشيكم، فاتخذوه جملاً))^(٤١). فبعد أن أباح الإمام الحسين عليه السلام لأنصاره الابتعاد والتفرق عنه، لان القوم لا يريدون إلا قتله جعل لهم الخيار ووضع لهم الوسطة التي يتفرقون بها من حوله، وهي (سواد الليل) فسيكون كالجمل في القدرة على حملهم إلى بر الأمان

بالرغم من الصعاب وخطورة الطريق، فنلاحظ العلاقة بين الليل والجمل متفاعلين تفاعلا غير متوقع برز فيها المعنى حاملا الإثارة^(٤٢)، لما منحه المثل المخزون في ذاكرة المخاطب من تأثير في ذاكرة المتلقي وتعميق للمعنى.

ومن الأمثال التي استحضرها الإمام الحسين عليه السلام في كلامه مباشرة قوله: (لو ترك القطا ليلا لنام)^(٤٣)، ويضرب هذا المثل لمن حُمل على مكروه من غير إرادته.

وهنا مصداق لقوله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(٤٤)، والقطا هو طائر بحجم الحمام جميل الشكل، غالي الثمن كان العرب يلاحقونه ليلاً ونهاراً فكان هذا الطائر لا ينام لكثرة ملاحظته، فقد شبه الامام الحسين عليه السلام ملاحظة الأعداء له بهذا الطائر، ومن جانب آخر فإن الإمام الحسين كان كارها أن يبدأ القوم بالقتال، ويتضح ذلك جليا بقوله عليه السلام صبيحة يوم عاشوراء عندما طلب منه مسلم بن عوسجة أن يرمي شمر بن ذي الجوشن بسهم فقال: ((فإنه قد أمكنني، وليس يسقط سهم مني فالفاسق من أعظم الجبارين! فقال له الحسين عليه السلام: لا ترمه، فإني أكره أن أبدأهم))^(٤٥)، فالإمام الحسين حاول جاهدا أن لا يقع السيف بينه وبينهم. وبالرجوع للمثل الذي قاله الإمام الحسين فإنه في ليلة عاشوراء ينقل الإمام السجاد أن الإمام الحسين عليه السلام كان يعالج سيفه ويصلحه قال هذه الأبيات^(٤٦):

(بحر الرجز)

يَا دَهْرُ أَفْ لَكَ مِنْ حَلِيلٍ
مَنْ صَاحِبٍ أَوْ طَالِبٍ قَتِيلٍ
وَأَنْتَ مَا الْأَمْرُ إِلَى الْجَلِيلِ
كَمْ لَكَ بِالْإِشْرَاقِ وَالْأَصِيلِ
وَالدَّهْرُ لَا يَقْنَعُ بِالْبَدِيلِ
وَكُلُّ حَيٍّ سَالِكٌ سَبِيلِي

فأعادها مرتين أو ثلاثا حتى فهمتها فعرفت ما أريد، فحنقنتني عبرتي، فرددت دمعي ولزمت السكون، فعلمت أن البلاء قد نزل. فأما عمّتي سمعت ما سمعتُ - وهي امرأة، وفي النساء الرقة والجزع: فلم تملك نفسها أن وثبت تجرّ ثوبها - وإنها لحاسرة - حتى انتهت إليه، فقالت: واثكلاه! ليت الموت أعدمني الحياة! اليوم ماتت فاطمة أُمي، وعليّ أبي، وحسنُ أخي، يا خليفة الماضي وثُمال الباقي!

فنظر إليها الحسين (عليه السلام) فقال: أختي! لا يذهبن بحلمك الشيطان! قالت: بأبي أنت وأُمي يا أبا عبد الله! استقتلت؟ نفسي فذاك.

فردّ غصّته وترقرقت عيناه وقال: لو تُرك القطا ليلا لنام! (٤٧)، أي لو لم يجبر القطا على الطيران في وقت نومه لما طار، والسبب في عدم نومه هو إقلاقه ولو تركه لنام، ويرجع سبب جلوس الامام بباب الخيمة ولم ينم خشية من انه اذا نام تهجم الأعداء عليه، أي إن الامام (عليه السلام) كان يخشى غدرهم، وبين الامام (عليه السلام) أن القوم عازمون على قتاله والأمر لا مفر منه ولن يتركوه إلا بقتله وأهله وأصحابه.

ب- التضمين غير المباشر:

في خطبة من خطب الإمام (عليه السلام) في كربلاء لأصحابه وبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال لهم: ((إنه قد نزل بنا من الأمر ما قد ترون... فإني لا أرى الموت إلا شهادة والحياة مع الظالمين إلا برما)) (٤٨)

ففي قوله (عليه السلام): ((فإني لا أرى الموت إلا شهادة والحياة مع الظالمين إلا برما)) معنى لمثل ((المنية ولا الدنيا))، الذي يضرب لمن يختار الموت على العيش الذليل، ويجوز فيها الرفع: أي المنية أحب إليّ ولا الدنيا: أي وليست مما أحب واختار)) (٤٩).

وقد جسد الإمام الحسين (عليه السلام) وأصحابه ذلك المعنى في واقعة كربلاء، إذ إنهم

جميعا اختاروا الموت العزيز على حياة الذل مع الظالمين، ((ولم تكن الدنية والذلة إلا عند أهلها، أهل الأَطْعام الذين تهافتوا على أموال يزيد كتهافت الفراش))^(٥٠).
ومن الواضح أن تضمين الأمثال ومعانيها في خطب الإمام جاء ((مترابطا ومنسجما وسياق الخطاب، فظهر ذلك جزءا من ثقافتهم اللغوية التي تؤكد تمكنهم من زمام اللغة))^(٥١).

المبحث الثاني: أنواع الخطاب

من خلال استقراءنا لبعض موضوعات خطب الإمام الحسين عليه السلام نجد أن أساليب هذه الخطب يسير في الغالب في اتجاهين:

الأول هادئ رزين يسلك سبيل التقرير والاحتجاج العقلي أو الديني^(٥٢)، والثاني ثائر قويّ يعتمد على الغضب على سلوك الخصوم وينتقم منهم ويمكننا من أن نصف أولهما ب:-

١- الخطاب الاقناعي

٢- الخطاب الحجاجي أو المنطقي.

٣- الخطاب الحماسي.

١- فالخطاب الاقناعي

هو ((الخطاب الذي يرمي إلى تحويل المخاطبين من وضع سلوكي إلى وضع آخر، وإلى حملهم على التصديق بقوة المتكلم، وبقدرته على الفعل))^(٥٣). ((وبما يقدمه من الأدلة التي تكفل الإقناع بالإثارة))^(٥٤)، ولا يتعد هذا النهج عن خطاب الإمام الحسين عليه السلام فيعمله بصيغ متعددة ومنها قوله ((أيها الناس، إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله، ناكثا لعهد الله، مخالفا لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله،

يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقا على الله ان يدخله مُدخله، ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، واطهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالنفيء، وأحلوا حرام الله، وحرّموا حلال الله، وأنا أحق من غيري.

قد أتتني كتبكم وقدمت عليّ رسلكم ببيعتكم أنكم لا تسلموني ولا تتخلونني، فان تمتمت عليّ ببيعتكم تصيبوا رشدكم، فانا الحسين بن عليّ، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، فلكم في أسوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم فلعمري ماهي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم...))^(٥٥).

يحاول الإمام الحسين عليه السلام في هذا الخطاب إقناع المتلقين لنصرته والالتفاف حوله لتوليه أمور المسلمين فيلجأ إلى حديث الرسول صلى الله عليه وآله مدخلا في بيان موضوعه، وخطابه وأسلوب الخطاب الذي أراد به إفهام المتلقين اثر النداء الذي استهله بقول الرسول صلى الله عليه وآله: (أيها الناس، إن رسول الله قال)، في هذا الخطاب يقيد الإمام الحسين عليه السلام المخاطبين بحديث الرسول صلى الله عليه وآله فضلا عما يحمله من قوة حجاج المخاطب، وكأنه يعمل الدليل النقلي لتقوية طرحه وتعزيزه.

ينتقل بعدها الإمام الحسين عليه السلام في توجيه خطابه إلى طغاة الأمة (ولاة الأمر) وهذا ما أراده بإشارته قائلا: (ألا وإن هؤلاء) فهنا يوصل الإمام عليه السلام قول الرسول صلى الله عليه وآله ((من رأى سلطانا جائرا)) وإجابته عليه السلام بقوله السالف وكأنه يوجه أصابع الاتهام إلى ولادة أمر المسلمين آنذاك، ويذكر الإمام عليه السلام مقتضيات وأمور تضعف بدورها صورة المشار إليهم بعبارة (هؤلاء) وذلك من طريق استعماله القياس المضمّر^(٥٦) مسترسلا في وصف أعمال مناوئيه

قد لزموا طاعة الشيطان
ألا إن هؤلاء ← وتركوا طاعة الرحمن
واظهروا الفساد
وعطّلوا الحدود
واستأثروا بالفيء
واحلوا حرام الله
وحرّموا حلال الله

ويكفي لمن يفعل هذه الأعمال المناهضة أن يخرج من دائرة الإسلام وان تقوم الثورة ضده، وعليه يفترض على المتلقين استنتاج نتيجة عمل هؤلاء القوم من خلال المقدمة التي ابتدأ بها خطابه والمتمثلة بحديث الرسول ﷺ في ضوء حديثه السالف، فضلا عن التوازن الذي اعتمده الإمام الحسين عليه السلام في خطابه بين كل فقرتين.

ثم ينتقل الإمام الحسين عليه السلام إلى إبراز نفسه مؤكدا تفضله على الآخرين وهذا كان واضحا بقوله (أنا أحق من غيري) منطلقا بقوله هذا من مبدئين:

الأول حصوله على التأييد والدعم من الأغلبية ودليل ذلك قوله (قد أتتني كتبكم)، (وقدمت عليّ رسلكم).

الثاني فهو التصريح علنا وجهرا بنسبه بقوله: أنا الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ. وهذا الخطاب موجه إلى الجميع لاسيما من يجول في نفسه الشك والريبة تجاه الإمام الحسين عليه السلام مؤكدا تفرد بتلك الأحقية بدليل نسبه وسلالته الشريفة، وأدى تكرار الضمير مع الاسم (أنا الحسين) اشد وقعا وتأثيرا في المتلقي، ويختتم الإمام خطابه بقوله (لكم في أسوة) وهو اقتباس من قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ

لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴿٥٧﴾ مما يقوي حجته ويدعمها وكأنه يرسم لهم الطريق الذي يجب إتباعه منشدا الإقناع والاستمالة لتحقيق مبتغاه.

٢- الخطاب الحجاجي او المنطقي.

تعد خطب الإمام الحسين عليه السلام سفرا خالدا في تاريخ الخطابة العربية، لما تحمله هذه الخطب من قيم إنسانية عالية وما انطوت عليه من أساليب حجاجية وإقناعية، أراد بها الإمام الحسين عليه السلام تأدية دوره الرسالي، وإعلان كلمة الحق من خلال هذا الخطاب الحسيني كيف لا وهو من (أوتي ملكة الخطابة من طلاقة لسان وحسن بيان، وغنة صوت) ^(٥٨)، وقد تضمنت هذه الخطب حججا مدوية أخذت تقرع آذان أعدائه وتفحم ألسنتهم كاشفا زيف إعلام الأمويين، ثم حدث أن كان مقتل الإمام الحسين عليه السلام من أقوى العوامل في تكاثر أنصار أهل البيت واثارة النقمة الشاملة على الأمويين ^(٥٩).

في البداية لابد لنا أن نتعرف ما المقصود بلفظة الحجاج ؟ ترد لفظة الحجاج في قواميس اللغة من الحجة وهو الدليل والبرهان ومنه تخرج لفظة الحجاج مرادفة للجدل، فعند ابن منظور هو (مقابلة الحجة بالحجة) ^(٦٠). وعلى هذا المعنى تكون بنية الحجاج مؤدية لمعنى النزاع والخصام بوجود أدلة وبراهين وحجج، ويكثر الحجاج في الخطابة كما هو الحال مع الجدل وقد عبر عنهما أرسطو بأتهما (قوتان لإنتاج الحجج) ^(٦١).

إن الخطاب الحجاجي هو الأسلوب الذي برز أثره في المناظرات والاحتجاجات لذلك وسم به أصحاب المذهب الكلامي ^(٦٢) والذي (يقوم على ايراد المتكلم على صحة دعواه حجة قاطعة مسلمة عند المخاطب، وان تكون المقدمات بعد تسليمها ملزمة للمطلوب. . . بالبراهين العقلية القاطعة) ^(٦٣)، وقد وقف الإمام الحسين عليه السلام عند هذا الاسلوب في إحدى خطبه لمعارضيه قائلا:

((أما بعد: فانسبوني فانظروا من أنا؟! ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، فانظروا هل يحلّ لكم قتلي، وانتهاك حرمتي؟! أأنت ابن بنت نبيكم صلى الله عليه وآله، وابن وصيّه وابن عمّه، وأول المؤمنين بالله، والمُصدّق لرسوله بما جاء به من عند ربّه؟ أو لئس حمزةُ سيد الشهداء عمّ أبي؟ أو لئس جعفر الشهيد الطيّار ذو الجناحين عمّي؟ أو لم يبلغكم قولٌ مستفيضٌ فيكم: ان رسول الله ﷺ قال لي ولأخي هذان سيّدا شباب أهل الجنة؟)) (٦٤).

اعتمد الامام الحسين عليه السلام على ادلة واقعية ومنطقية متسلسلة في إقامة حجته في مواجهة خصومه محاولا اقناع المتلقين بصواب رأيه وفكرته والوصول إلى نتيجة معينة، مستخدما قدرة تعبيرية ولغوية لعرض ما بخاطره، بدقة ولباقة تمسك على المتلقي عقله وشعوره حتى يسلم بما يُقال فلا يملك المقابل مجالاً للنقض أو المداخلة، فيعمل أسلوب الأمر بصياغة الطلب مدعوما بأسلوب الاستفهام في إقامة حجته المنطقية: الأفعال (انسبوني، ارجعوا، انظروا) هي أفعال أمر يراد بها الطلب مسندة إلى واو الجماعة موشحة بأسلوب الاستفهام (من أنا؟ / هل يحق لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟) وهنا يجعل الإمام الحسين عليه السلام الجواب عن هذا الاستفهام مخصصا والموجه نحو المتلقي فقط ليشهدهم على قوله وحججه، ومن ناحية أخرى ينتقل الإمام عليه السلام بالاستفهام بالهمزة مقرونا بالنفي وجوابه مثبتا ومعروفا بأداة الجواب (بلى) (أأنت ابن بنت نبيكم؟ ابن وصيّه؟ ابن عمه؟ أول المؤمنين). فينتقل الإمام الحسين عليه السلام في خطابه الحجاجي بين أدوات الاستفهام فيستفهم ب(هل) ويحجب ب(الهمزة) فيدعم موقفه ويعزز به يفحم المقابل ويقيده ويحجم رده. ومن ناحية أخرى فقوله عليه السلام: أأنت ابن بنت نبيكم؟ مائل الإمام الحسين عليه السلام بين قتله وقتل النبي ﷺ إذ إن الإمامة تمثل الامتداد الطبيعي للنبوّة، فيكون من الطبيعي الاعتداء على الإمامة هو

اعتداء على النبوة وهنا وجه الإمام خطابه إلى الناس ناصحا وواعظا لهم بشكل حجاجي لتثبيت أقواله وترسيخها ومن ثم إقناعهم بها.

٣- الخطاب الحماسي

يرتبط هذا الخطاب بحالة المتكلم الشعورية فيحاول إثارة العواطف والأحاسيس الصادقة والمشاعر لدى المتلقي، عاملا من الألفاظ الوصفية المؤكدة والحقيقية على جلب انتباه المتلقين وتوجيههم نحو الهدف الذي يقصده المتكلم^(٦٥). فإثارة الحماسة في نفوس المتلقين تحملهم على الاستبسال والاستشهاد^(٦٦)، لذلك نجد بصمات للخطاب الحماسي في أقوال الإمام الحسين عليه السلام، فيستخدم هذا الخطاب في استنهاض العزيمة وإذكاء روح الحماسة تجاه المخاطبين والدعوة إلى الاستنفار والاستنصار نحو قوله:

((إنه قد نزل بنا من الأمر ما قد ترون، وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها واستمرت حذاء، ولم يبق منها إلا صُبابَة كصبابَة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الويل ، ألا ترون أن الحق لا يعمل به، وأن الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء ربه محقا، فأني لا أرى الموت إلا شهادة، والحياة مع الظالمين إلا برما))^(٦٧).

الواضح من هذا الخطاب هو لغة الاستثارة والاستنفار، إذ استخدم الإمام الحسين عليه السلام الصيغ اللغوية في شحذ همم المتلقين، وتأجيج عواطفهم للوقوف مع المتلقي فيما يروم الخوض فيه، فكان لإعماله الأداة (قد) مع الفعل الماضي وتكراره هذه الصياغة، تأكيد لتحقيق الأمر واستفحاله.

قد نزل ← ما قد ترون

الانتقال من الفعل الماضي الى الفعل المضارع إحضارا للحدث لإيقاف المتلقي على حقيقة الأمر واستعظامه.

ثم يسهب الإمام عليه السلام في وصف الأمر ويفصل فيه مستعملا أداة التحقيق مع الأفعال الماضية المسبوقة بأداة التوكيد.

وإن الدنيا قد تغيرت وتكثرت وأدبر
معروفها واستمرت حذاء

تأكيد + فعل ماض مسبوق ب(قد) وعطفه على الأداة سلسلة

من الأفعال الماضية المنسوبة إلى الدنيا بما تحمله من معنى

السلب، إذ يرسم تصويرا واقعيا فداحة الأمر الحاصل والتي

ختمها بالفعل (استمرت جدا) وكأنه يودع أسماع المتلقين صرخة
لإيقاظهم مما هم فيه.

وتأكيدا لكلامه يرسم صورة بلاغية مدعومة بصياغة التشبيه ليودع عباراته قوة
وحرارة بما تحمله تلك الصورة من أخيلة تثير العاطفة ^(٦٨).

لم يبق منها ← إلا صُبابَة كصبابَة الإناء

وخسيس عيش كالمرعى الوبيل

فضلا عما تركه الألفاظ من معان (صبابة الإناء - خسيس عيش - المرعى
الوبيل) تصب في الاضمحلال ونفاذ القوة، يرسم بموجبها أثرا داخل نفس
المتلقين، ويعرض الإمام الحسين عليه السلام صورا مستمدة من الواقع الملموس

الأترون ← أن الحق لا يعمل به

← أن الباطل لا يتناهى عنه

فقد مثلت صورة المطابقة التي ساقها عليه السلام في عرض خطابه لغة ناطقة لحالة الفساد

والتردي التي تشهدها الدولة الإسلامية آنذاك، ويعمل أسلوب الخبر المتمثل بصياغة الشرط والتأكيد والنفي

ألا ترون ← أن الحق لا يُعملُ به
← أن الباطل لا يتناهى عنه

وبهذا الخطاب المحكم أقام الحسين عليه السلام خطابه، عامدا إلى أن يصل به إلى مبتغاه وتحقيق ما يرمي نحوه الذي يتمثل بالحصول على الدعم بخطاب ينتهج الحكمة والتروي حيناً والإثارة والاستبسال حيناً آخر، فخطابه موجه إلى عامة المسلمين فغلبت عليه سمة الوضوح وقوة الإبلاغ المقرون ببسط الآراء ومناقشتها وتقديم نتائجها وتعزيز مخرجاتها، بحجج نقلية وعقلية ومنطقية، مدعومة ببدييات في حقيقة النسب والقراة والولاية والاقْتباس من آيات الذكر الحكيم، والحديث النبوي الشريف، بما ينزع أي شك يتسرب إلى نفوس المتلقين، وحثهم على الالتزام بما يقره الشرع والدين والعقل من أحقية في ولاية المسلمين وإمامتهم ودفع الباطل وأهله ولمن استله واغتصب حقه بأسلوب هادئ مرة وشديد مرة أخرى مما انطوت عليه نصوص الإمام الحسين عليه السلام.

الخاتمة

توصّل الباحثان من سعة فضل الله تعالى ومنّه عليهما إلى ثمرات عدّة في دراسة خطب الإمام الحسين (عليه السلام) في وقعة الطف لأبي مخنف الأزدي (ت ١٥٧ هـ) - دراسة في ضوء تحليل الخطاب يمكن إيجازها على النحو الآتي:

١- إن الثقافة الإسلامية المتمثلة بالقرآن الكريم والسنة النبوية كان لها الدور الكبير في تكوين الشخصية المتكاملة للإمام الحسين.

٢- كان الإمام الحسين (عليه السلام) مدركاً تماماً طبيعة الدور الذي يضطلع فيه الاستدلال ولا سيما فيما يخص المتلقي، وهو الأمر الذي يؤكد كفاءته الحجاجية التي تعتمد على المعنى الحركي المؤثر والنسق الديني المهيمن.

٣- اعتمد الإمام الحسين (عليه السلام) في حجاجه بعض أساليب الاستدلال القرآني، والأحاديث النبوية والروافد الأدبية من شعر وأمثال استند إلى الخطاب الفاعل الذي لا يقبل سوى الصدق، وهو الأمر الذي ساعد في الكشف عن المقاصد التي تقع داخل النصوص وخارجها وهي تتوافق مع شخصية الإمام الحسين (عليه السلام) والمصادر التي استقى منها أساليب استدلاله.

٤- خطاب الامام الحسين (عليه السلام) موجه إلى عامة المسلمين فغلبت عليه سمة الوضوح وقوة الإبلاغ المقرون ببسط الآراء ومناقشتها وتقديم نتائجها وتعزيز مخرجاتها، بحجج عقلية وعقلية ومنطقية، مدعومة ببديهيّات في حقيقة النسب والقرابة والولاية والاقْتِباس من آيات الذكر الحكيم، والحديث النبوي الشريف، بما ينزع أي شك يتسرب إلى نفوس المتلقين، وحثهم على الالتزام بما يقره الشرع والدين والعقل

٥- إن هدف الإقناع من خطب الإمام الحسين (عليه السلام) هو إصلاح شأن الأمة الإسلامية بعدما طغى عليها الطغيان الأموي بمفاصله كلها، فالإصلاح غايته وهدفه (عليه السلام) وهو ما أراد أن تعيه الناس، محاولاً إقناعهم بذلك والتأثير فيهم.

هوامش البحث:

- (١) الخطاب، سارة ميلز، ترجمة: يوسف بغول، منشورات مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات، جامعة متنوري، قسنطينة، ٢٠٠٤، ٥٠.
- (٢) حول وضع العلوم الإنسانية ومشكلاتها من منظور ابستمولوجي، يوسف بريك، مجلة جامعة دمشق، المجلد: ١٥، ع/ ٤، ١٩٩٩، ١٠٦.
- (٣) حول حدود استحضار المقدس في الأمور الدنيوية: ملاحظات منهجية، ابراهيم ايراش: مجلة المستقبل العربي، بيروت، ع/ ١٨٠، ١٩٩٤، ٥٠.
- (٤) لسان العرب، ابن منظور، المجلد الخامس، دار احياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ٢١٩.
- (٥) ينظر: البلاغة وتحليل الخطاب، حسين خالفي، دار الفارابي، بيروت - لبنان، ١، ٢٠١١.
- (٦) ينظر: وقعة الطف لابي مخنف، لوط بن يحيى الأزدي، تحقيق الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي، المجمع العالمي لأهل البيت، ط ٣، دار المعارف - بيروت، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م: ص ١٩٧.
- (٧) ينظر: وقعة الطف ١٩٧.
- (٨) التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية من مكة الى المدينة، هادي سعدون هنون، العتبة العلوية المقدسة، ٢٠١١: ١٧٨.
- (٩) الخطاب الحسيني في معركة الطف دراسة لغوية وتحليل، عبد الكاظم محسن الياسري، كربلاء، العتبة الحسينية المقدسة ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- (١٠) سورة القصص: ٢١
- (١١) سورة القصص: ٢٢
- (١٢) وهي منطقة واقعة ما بين واقصة الى عذيب المهجانات في أرض الحزن من ديار بني يربوع بن حنظلة، كما في معجم البلدان، المجلد الأول، ص ٥٣٢.
- (١٣) سورة الفتح: ١٠
- (١٤) وقعة الطف: ص ٢٠٠
- (١٥) سورة لقمان: ٣٣
- (١٦) الامثل ١٣ / ٥٨
- (١٧) سورة يونس: ٧١
- (١٨) سورة الأعراف: ١٩٦
- (١٩) الامثل في تفسير كتاب الله المنزل: الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط ٢، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ٦ / ٢٧٩.

- (٢٠) البيان والتبيين: ١٧/٢ - ٤١٨.
- (٢١) ينظر: التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية من مكة الى المدينة / ٣٣.
- (٢٢) وقعة الطف لابي مخنف، ١٩٩.
- (٢٣) مسند احمد: احمد بن حنبل، ترقيم محمد عبد السلام عبد، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٣، ٤ / ٢١٤.
- (٢٤) وقعة الطف لابي مخنف، ٢٣٧.
- (٢٥) المصدر نفسه، ٢٢٤.
- (٢٦) فضائل الصحابة، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن اسد الشيباني (ت ٢٤١هـ)، تحقيق: وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج ٢، ١٩٨٣ م.
- (٢٧) العقد الفريد: احمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ)، تحقيق محمد سعيد العريان، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤ م: ٦ / ١١٨.
- (٢٨) ينظر: طبقات فحول الشعراء: محمد بن سلام، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، مصر (د. ت): ٢٤.
- (٢٩) العمدة في محاسن الشعر وآدابه: ابو علي الحسن بن رشيق (ت ٤٥٦هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م: ١ / ٢٨.
- (٣٠) المصدر نفسه: ١ / ٣٢.
- (٣١) وقعة الطف لأبي مخنف: ٢٣٠ / تاريخ يعقوبي، احمد بن أبي يعقوب يعقوبي، ج ٢، ص ٢٤٤ / تاريخ الأمم والملوك، الطبري، ج ٥، ص ٤٢٠ / مقاتل الطالبين، أبو الفرج الاصفهاني، ص ٧٥ / الامالي، محمد بن علي الصدوق، ص ٢٢١.
- (٣٢) وقعة الطف لابي مخنف: ٢٠٠.
- (٣٣) وقعة الطف لابي مخنف: ٢٠١، / كامل الزيارات، جعفر بن محمد بن قولويه، ص ١٩٤ / الامالي، محمد بن علي الصدوق، ص ٢١٩ / تاريخ الأمم والشعوب، الطبري، ج ٤، ص ٣٠٥ / الارشاد، محمد بن محمد المفيد، ج ٢، ص ٨١.
- (٣٤) التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية / ٤٤.
- (٣٥) ينظر: معجم مجمع الأمثال: الميداني، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجليل، بيروت - لبنان، ط ٢، ١٩٨٧ م: المقدمة: ٦ / ١.
- (٣٦) المعجم المفصل في الأدب: محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ٢،

١٩٩٩ م: ٧٥٧ / ٢.

- (٣٧) مفاتيح الغيب: الرازي، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط ٣، ١٩٨٥ م: ٨٠ / ٢.
- (٣٨) الصورة الفنية في المثل القرآني: د. محمد حسين الصغير، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨١ م، ٦٠.
- (٣٩) مجمع الامثال: ابو الفضل احمد بن محمد بن ابراهيم الميداني (ت ٥١٨ هـ)، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، دار الجليل بيروت - لبنان، ط ٢، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م: ٢٣٧ / ١.
- (٤٠) ينظر: جمهرة الأمثال: ١ / ٧٦.
- (٤١) تاريخ الطبري: ٥ / ٤١٨، الإرشاد: ٣٣٦، أعلام الوري: ٢٤٣، مقتل الخوارزمي: ١ / ٣٥٠، الكامل في التاريخ: ٣ / ٢٨٥.
- (٤٢) ينظر: التفسير النفسي للأدب: عز الدين إسماعيل، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣ م: ٦٦.
- (٤٣) ينظر مجمع الامثال: ٢ / ٣٢٢٠.
- (٤٤) سورة البقرة: ٢١٦
- (٤٥) ينظر وقعة الطف: ٢٣٦
- (٤٦) المصدر نفسه: ٢٣٠
- (٤٧) المصدر نفسه: ٢٣٠
- (٤٨) ينظر: وقعة الطف ١٩٩.
- (٤٩) مجمع الامثال: ٣ / ٣١٦.
- (٥٠) الطبري: ٥ / ٤٠٣.
- (٥١) التصوير الفني: ٦٦
- (٥٢) ينظر: تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف ق ٢، احمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط ٤، ١٩٦٤ م: ١٩٩.
- (٥٣) الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة شعرية)، صالح بن رمضان، دار الفارابي، بيروت لبنان، ط ١، ١٠٠٢ م: ٢٨١.
- (٥٤) ينظر: فن الخطابة، احمد الحوفي، دار النهضة للنشر، ١٩٧٢: ١٨١.
- (٥٥) ينظر وقعة الطف: ٢٠٠
- (٥٦) القياس المضمّر: هو القياس الذي تضمّر احدى مقدمتيه، او تضمّر نتيجته، ويفترض على السامع استنتاجها من المقدمتين. ينظر: الرسائل الادبية: ٢٩١.
- (٥٧) سورة الأحزاب: ٢١

- ٥٨) الحسين ابو الشهداء، عباس محمود العقاد، تح، محمد جاسم الساعدي، فجر الإسلام، إيران، ط١، ٢٠٠٤م: ١٣٥.
- ٥٩) ينظر: التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية، هادي سعدون عنون، إصدارات العتبة العلوية المقدسة، ٢٠١٢م: ١٩.
- ٦٠) لسان العرب: ابن منظور، دار صادر، بيروت، د. ت، مادة (جدل).
- ٦١) الخطابة: أرسطو، تعريب عبد الرحمن بدوي، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٨٦م، مقالة ١، الفصل الثاني، ١٣٥٦أ
- ٦٢) ينظر: الخطاب السياسي في رسالة الخميس لأحمد بن يوسف الكاتب (دراسة فنية)، أ.د. رمضان صالح عباد، بحث منشور، مؤتمر كلية الآداب، ٢٠١٢م: ١٦.
- ٦٣) ينظر: جواهر البلاغة في البيان والبديع، احمد الهاشمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان: ٣٧.
- ٦٤) ينظر: وقعة الطف ٢٣٧-٢٣٨
- ٦٥) ينظر: فن الخطابة، محمد تحريشي، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق ٢٠٠٠م: ١٩.
- ٦٦) ينظر: الخطابة العربية في عصرها الذهبي، احسان النص، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣م: ١٨٣.
- ٦٧) ينظر: وقعة الطف: ١٩٩.
- ٦٨) ينظر: فن الخطابة: ١٨٣.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- * الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط: ٢، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- * البلاغة وتحليل الخطاب، حسين خالفي، دار الفارابي، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠١١.
- * البيان والتبيين: ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط ٢، ١٣٨٠ - ١٩٦٠م.
- * تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف ق ٢، احمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط ٤، ١٩٦٤م
- * التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية من مكة الى المدينة، هادي سعدون هنون، العتبة العلوية المقدسة، ٢٠١١.
- * جواهر البلاغة في البيان والبديع، احمد الهاشمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان
- * الحسين ابو الشهداء، عباس محمود العقاد، تح: محمد جاسم الساعدي، فجر الإسلام، إيران، ط ١، ٢٠٠٤م.
- * حول حدود استحضار المقدس في الأمور الدنيوية: ملاحظات منهجية، ابراهيم ايراش: مجلة المستقبل العربي، بيروت، ع/ ١٨٠، ١٩٩٤
- * حول وضع العلوم الإنسانية ومشكلاتها من منظور ابستمولوجي، يوسف بريك، مجلة جامعة دمشق، المجلد: ١٥، ع/ ٤، ١٩٩٩.
- * الخطاب، سارة ميلز، ترجمة: يوسف بغول، منشورات مخر الترجمة في الأدب واللسانيات، جامعة متنوري، قسنطينة، ٢٠٠٤
- * الخطابة: أرسطو، تعريب عبد الرحمن بدوي، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٨٦م، مقالة ١، الفصل الثاني، ١١٣٥٦
- * الخطاب الحسيني في معركة الطف دراسة لغوية وتحليل، عبد الكاظم محسن الياسري، كربلاء، العتبة الحسينية المقدسة، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- * الخطاب السياسي في رسالة الخميس لأحمد بن يوسف الكاتب (دراسة فنية)، أد. رمضان صالح عباد، بحث منشور، مؤتمر كلية الآداب، ٢٠١٢م
- * الخطابة العربية في عصرها الذهبي، احسان النص، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣م.
- * الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة شعرية)، صالح بن رمضان، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٠٠٢م.
- * الصورة الفنية في المثل القرآني: د. محمد حسين الصغير، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨١م
- * طبقات فحول الشعراء: محمد بن سلام، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، مصر (د. ت): ٢٤.
- * العقد الفريد: احمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ)، تحقيق محمد سعيد العريان، دار الفكر بيروت، ط ٢، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.
- * العمدة في محاسن الشعر وآدابه: ابو علي الحسن بن رشيق (ت ٤٥٦هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

- *فضائل الصحابة، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن اسد الشيباني (ت ٢٤١هـ)، تحقيق: وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج ٢، ١٩٨٣م.
- *فن الخطابة، احمد الحوفي، دار النهضة للنشر، ١٩٧٢.
- *فن الخطابة، محمد تحريشي، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق ٢٠٠٠م.
- *لسان العرب، ابن منظور، المجلد الخامس، دار احياء التراث العربي، بيروت - لبنان
- *مسند احمد: احمد بن حنبل، ترقيم محمد عبد السلام عبد، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٣.
- *معجم مجمع الأمثال: الميداني، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت - لبنان، ط ٢١٩٨٧م.
- *المعجم المفصل في الأدب: محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ٢، ١٩٩٩م.
- *مفاتيح الغيب: الرازي، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط ٣، ١٩٨٥م.
- *وقعة الطف لأبي مخنف، لوط بن يحيى الازدي، تحقيق الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي، المجمع العالمي لأهل البيت، ط ٣، دار المعارف - بيروت، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.